أركيولوجيا الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض في كتابه بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمانية"

Critical Discourse Archeology in the book of Abd al-Malik Murtad "The Structure of Poetic Discourse" An anatomical study of the poem "Ashgan Yamaniya"

أميرة بوغرارة[*]، الطاهر بومزبر[2]

[1]جامعة جيجل، (الجزائر)، amira.boughrara@univ-jijel.dz

[2]جامعة -جيجل، (الجزائر)،tahar.boumezbeur @univ-jijel.dz

مخبر البحث في الدراسات الاجتماعية اللغوية والاجتماعية التعليمية والاجتماعية الأدبي

تاريخ الإيداع: 2022/12/02 **تاريخ المراجعة**: 2023/06/11 **تاريخ النشر**: 2023/10/10

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى البحث والتنقيب في البيئة الأصلية للمنهج في الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، من خلال مؤلفه "بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمانية"، كما تهدف أيضا إلى البحث عن القطائع الإبستمولوجية وتحولات المنهج عند الناقد.

وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة على الإشكالية الآتية: هل استطاع الناقد تطويع المنهج بما يناسب النص؟ هل استجاب المنهج النقدي عند الناقد لمرجعيات ومضامين البيئة العربية؟ وإلى أي مدى تناسبت خصوصية النص المدروس مع طبيعة المنهج؟ معتمدين على آلية من آليات نقد النقد وهي الأركيولوجيا من أجل تتبع الظاهرة المدروسة.

الكلمات المفتاحية: المنهج، الخطاب النقدي، عبد الملك مرتاض، التشريحية، الأركيولوجيا.

***Abstract**: This study seeks to search and excavate the original environment of the method in the critical discourse of Abd al-Malik Murtada, through his book "The Structure of Poetic Discourse, an anatomical study of the poem " Ashjan Yamaniyyah ", and also aims to search for epistemological cleavages and shifts in the approach of the critic.*

Through this research paper, we will try to answer the following problem: Was the critic able to adapt the method to suit the text? Did the critic's critical approach respond to the references and contents of the Arab environment? To what extent is the specificity of the text studied commensurate with the nature of the method? They rely on one of the mechanisms of criticism, which is archeology, in order to track the studied phenomenon.

***Key words**: method, critical discourse, Abd al-Malik Murtad, anatomical, archaeology.*

***المؤلف المراسل.**

تقديم:

يُعدُّ (عبد الملك مرتاض) من النقاد الذين تميزوا بموسوعية وقدر فكري ومعرفي، جعله أيقونة في النقد العربي، وأحد أهم أقطاب النقد الجزائري المعاصر. فقد كانت له ممارسات تنظيرية وإجرائية في مجال النقد الأدبي، قارب من خلالها الخطاب النثري والشعري على السواء. وقد عرف الخطاب النقدي لدى مرتاض تحولا منهجيا ملحوظا، وهو الأمر الذي نجده في انتقاله من المناهج السياقية إلى المناهج النصية الحداثية، إلى مناهج/ استراتيجيات ما بعد الحداثة، أين عرفت ثقافته وأدواته التحليلية نوعا من الحيوية.

وعطفًا على ما سبق، نجد مرتاضا يزاوج بين التراث والحداثة. ولعل كتابه: **بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمانية"**، من المدونات النقدية التي اشتغل الناقد فيها حول قصيدة للشاعر اليمني عبد العزيز المقالح، ضمن ديوانه **"الخروج من دوائر الساعة السليمانية"**، إذ اعتمد فيها مقاربة بنيوية وأسلوبية على الرغم من ذكره أن الدراسة تشريحية، وللتأكد من سلامة هذا الافتراض، ارتأينا أن نجعل المقال محاولة للإجابة على مجموعة من الأسئلة المنهجية لحظة تطبيقه لمقولات التفكيك، ولعل أهمها:

كيفية تطوّيع عبد الملك مرتاض لاستراتيجية التفكيك في كتابه (بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمانية")، وهل أفلح في اثبات لياقة وتطبيق مقولات التفكيك على القصيدة؟ وهل استطاع الناقد تمثّلها وتطبيق آلياتها على النص الشعري أم تداخلت مع مناهج أخرى؟ وما هي رؤيته النقدية فيما تعلق بالخطاب الشعري؟

وسنرتكز في مناقشة ذلك، على آلية من آليات نقد النقد وهي الأركيولوجيا؛ من خلال محاولة الحفر في البيئة الأصلية للمنهج، وكيف استعمله الناقد في البيئة العربية. وهذا للوصول إلى مدى قدرة مرتاض على تطويع المنهج بما يتناسب وخصوصية النص المدروس.

فكان الهدف من هذه الورقة البحثية التعرف على الرؤية النقدية لعبد الملك مرتاض حول بنية الخطاب الشعري وتمثله وفهمه لمصطلح التفكيك أو التشريح. ومحاولة الحفر في البيئة الأصلية للمنهج عنده، وكيف أصّل له مرتاض، وهل كان ملتزما بالآليات الإجرائية له في مقاربته لقصيدة "أشجان يمانية".

أولا: بنية الخطاب الشعري عند عبد الملك مرتاض:

يعد كتاب "بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمانية"" من المؤلفات التي قدمها الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض، في مرحلة التأسيس والتجريب –على حد قول يوسف وغليسي- فقد "كان عبد المالك مرتاض في مرحلة "التأسيس والتجريب" هذه، يمهد لإرساء معالم منهج نقدي جديد، يحتكم إلى التأويل المحايث للظاهرة النصية المجردة من سياقاتها الخارجية برؤية بنيوية أسلوبية لم تسلم من بعض الملامح التقليدية"[1]؛ من خلال دراسة النص دراسة نسقية محايثة بعيدا عن كل السياقات الخارجية. وقد سعى في كتابه "بنية الخطاب الشعري" لمقاربة قصيدة للشاعر "عبد العزيز المقالح" بعنوان "أشجان يمانية"، فكان اختيار مرتاض لهذه القصيدة غير عشوائي، بل له مصوغ متعلق بطبيعة وخصائص الخطاب الشعري عند عبد العزيز مقالح "الذي استطاع أن يساهم بجد وكفاءة في تطوير مسار الشعر العربي، وتطويع لغته الفنية بجعلها في متناول القراء"[2]، وهذه القصيدة هي نفسها التي قدم لها مقاربة مركبة في كتاب آخر بعنوان "شعرية القصيدة قصيدة القراءة تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية"[3].

تضمن الكتاب تمهيدا حول نظرية الشعر تحدث فيه مرتاض عن موقف بين الجاحظ وأبو عمرو الشيباني في اختلافها في الحكم على شعرية بيتين من الشعر، ومن خلال ما عرضه مرتاض حول ذلك نجده يتبنى آراء الجاحظ حول نظرية الشعر، فقد راح يحلل القصيدة انطلاقا من ذلك، فجعل الفصل الأول حول البنية التي يقوم عليها الخطاب الشعري، والتي تأثر فيها بشكل واضح بالرؤية النقدية للجاحظ، أما باقي الفصول فتناول فيها خصائص الصورة الفنية والحيز الشعري، وكذلك ما تعلق بالزمن والصوت والإيقاع والمعجم الفني.

وقدم مرتاض في كتابه مفاهيم حول نظرية الشعر عند الجاحظ من خلال مقولته المعروفة "المعاني مطروحة في الطريق"، واتفق مع الرؤية النقدية له حول بنية الخطاب الشعري، فاعتبر بنية الخطاب الشعري قائمة على: "ملاحظة اللغة الفنية المستخدمة في النص؛ والحركة التي تتحكم في هذه اللغة فتفضي بها إلى نحو غايتها؛ ثم على نظام العلاقة الحميمة التي تربط هذه الشبكة من المظاهر الخارجية والداخلية معا للنص؛ ثم على الرؤية الفنية التي يطرحها هذا النص الشعري، ينضاف إلى كل ذلك حيز النص الشعري وما ينبغي أن يجوسه من زمان متحكم في سطح النص وعمقه"[4]؛ وبالتالي فالقصيدة أو النص الشعري عند مرتاض تتحدد بنيته من خلال: عنصري اللغة الفنية؛ التي تتشكل عبر الصور الشعرية وفرادة النص. والحيز الشعري الذي يعتبر امتدادا للصور الفنية كالاستعارة والتشبيه والكناية... وتفاعل هذه المعطيات الفنية هو ما يحدد بنية القصيدة وتشكلها. فنجد في نظرة مرتاض تأثرا واضحا بآراء الجاحظ حول نظرية الشعر وبنية الخطاب الشعري. وقد جعل من هذا قاعدة بناء في قراءته لقصيدة أشجان يمانية.

ثانيا: نقد النقد بين مساءلة الفلسفة ومأزق المنهج:

يعد نقد النقد مجالا معرفيا وشكلا من أشكال نظرية التأويل، وهو حقل معرفي ناشئ ما زال في طور التشييد والبناء، إلا أنه بحاجة إلى مجموعة مناهج أو مقارباتٍ ليشتغل وفقها في قراءته للمنجز النقدي، فقد تساءل النقاد ما إذا كان لنقد النقد منهج خاص وآليات خاصة به أم أن اشتغاله الإجرائي يقتصر على مناهج النقد الأدبي. وكان تساؤلهم نابعا من طبيعة الأنظمة المعرفية التي يود ناقد النقد الاشتغال عليها. فالتأويل موضوع اهتمام عدة حقول كالفلسفة والدين والأدب والأيديولوجيا... وهو نظرية تحاول فهم الظواهر الإنسانية، فقد ارتبط قديما بالتأويلات الرمزية والكتب المقدسة التي اكتنفها الغموض في الفهم بسبب قدمها، ثم ارتحل بعد ذلك إلى الفلسفة والنقد الأدبي فارتبط بالأدب بسبب الإبهام الذي يحيط بالنصوص الأدبية من رمزية ومجاز وتكثيف دلالي.

ويسعى التأويل لتفسير البنى المتموضعة في النصوص من خلال تأويل إمكاناتها المبثوثة في العالم. لذلك فضلوا التأويل كفلسفة **"للدلالة بامتياز، متجاوزا لحدود المناهج والمذاهب، إذ هو أكبر من أن يختزل في اتجاه مدرسي (سكولائي) Scolastique، فهو ردة على كل تصنيف أو منهجية تحبسه في كنف أنساقها، أو تحجبه عن ممارسة حق النقد/ التأويل، حتى على ذاته التأويلية، فلا ريب، والأمر ما نعتقد، أن تكون كل قراءة/ فلسفة تأويلية خاضعة لتأويل/ نقد، يعيد قراءتها بواسطة فلسفة غيرية تقيم على أرض الاختلاف كينونتها، بوصفها الآخر/ المختلف دوما"**[5]. وهذه القراءة تتجاوز الاستقراء المنهجي لترتمي في حقل الفلسفة فتعتمد التأويل كإجراء يعيد فهم النص، والبحث في جوانبه وسياقاته غير المعلنة، ذلك فالتأويل: حلقة تتقاسمها كل النظريات المعرفية وهذا للابتعاد عن الموضوعية ومحاولة عدم الوقوع في الأيديولوجيا لذلك عد آلية من آليات نقد النقد.

ويعول نقد النقد أيضا في عملية مساءلته للخطاب النقدي على آلياتي الجينيالوجيا والأركيولوجيا؛ حيث تعد الجينيالوجيا منهجا فلسفيا كان لفريديريك نيتشه الفضل في التأسيس له، وهو **"قراءة تمارس على الأفكار أسلوب التعرية والفضح. إنها لا تعني عند نيتشه تاريخا لتعاقب المفاهيم والمنظومات الأخلاقية بل كشفا لما يكمن خلفها من دو افع، إنها تؤول الأفكار كأنها علامات أو أعراض يتوجب على الباحث أن يميط اللثام عن حو افزها الخفية"**[6]، وتسعى لتتبع الأفكار والظواهر حتى تمارس عليها نقدا وحفرا، وهذا لفحص أصولها وفضح سلطتها، وهي وجهة النظر التي قدم بها نيتشه أفكاره حول جينيالوجيا الأخلاق. **"ذلك أن مرمى التاريخ الجينيالوجي ليس هو استعادة جذور الهوية و إنما القضاء عليها منذ البداية... فهي لا تأخذ على عاتقها رصد المنشأ الوحيد الذي صدرنا عنه، والموطن الأصلي الذي تعدنا الميتافيزيقا بالرجوع إليه، و إنما تسعى لإظهار الانفصالات التي تخترقنا"**[7]، وبالتالي تعمل الجينيالوجيا على البحث عن أصول الظواهر لكشفها والقضاء عليها ومحاولة كشف هوية تلك الظواهر وإلغاءها.

أما الأركيولوجيا فقد تحدث عنها ميشال فوكو في كتابه "الكلمات والأشياء قائلا أن ثورة الأركيولوجيا **"إنما تقصد تلك القطيعة المنتظرة التي ستحل في نظام الأنظمة المعرفية الذي اعتادت العلوم الإنسانية أن تجعله كبطانة تغلف به منهجياتها ذات الانتماءات المعلنة للوضعيات التجريبية"**[8]؛ فهي قطيعة معرفية

تكشف لنا أصول الظواهر التي اعتدنا النظر لها دون القدرة على كشفها أو فضحها. **"كما ترفض أن تكون دراسة تبحث عن المعنى الحقيقي خلف المعنى الظاهر. إنها لا تترصد اللحظة التي فيها تكوّن الخطابات، أو حدوثها بالصورة التي هي عليها، ومن ثم فهي لا تسعى إلى إبراز المفكر فيه لحظة صياغة الخطاب، بعبارة أخرى، ترفض ترديد ما قيل، إنها كتابة ثانية"**[9]، فلا تبحث الأركيولوجيا عن الظروف أو السياقات التي نشأ فيها الخطاب بقدر ما تبحث عن أصول هذا الخطاب والحفر في أبنية المعرفة وأنظمتها. فليس الهدف من ذلك إلغاء هويتها أو رفضها بل البحث في الأصول المعرفية للمنهج أو المصطلح على سبيل المثال والحفر في بيئته الأصلية .

أما المقاربة الأركيولوجية أو القراءة الأركيولوجية فلا **"تروم من خلال إجراء النبش/الحفر التماهي مع الأشياء، أو القبض على هويتها واستجلاء عمقها ومكنونها، كما هو الحال في التأويل الكلاسيكي، ومن ثم لا تترصد لحظات تشكل الخطاب ولا لحظات اندثاره وتلاشيه، و إنما تضطلع بإبراز خصوصية الخطاب بوصفه خطابا مختلفا، وكذا القو انين التي يتحرك ويشتغل ضمنها، حتى يتسنى لها الوقوف على المختلف/المفارق في صيغ الخطاب ووجوهه المتعددة. وهو خلاف ما يقوم به منهج البحث المفارق في صيغ الخطاب ووجوهه المتعددة"**[10]. فمقاربة أي نص نقدي أركيولوجيًا تكون بالبحث عن هوية الظاهرة أو المنهج أو المصطلح عليه، ومحاولة كشف أصولها لإبراز خصوصيتها للوصول إلى أنها تعتبر خطابا له جوهره الخاص.

ثالثا- إتيمولوجيا الحفر في المنهج عند عبد الملك مرتاض:

عند الاطلاع على عنوان كتاب مرتاض (بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمانية") يتبادر للناقد أن القصيدة سيتم مقاربتها تشريحيا، إلا أن قراءة مضمون الكتاب يقود إلى أنّ الفكر الموسوعي للناقد جعلت مقاربته التشريحية أو التفكيكية تتحول إلى مقاربة بنيوية وأسلوبية، وهو المسار التحليلي الذي يبقي استفهاما في أذهاننا عن سر هذا التحول في استراتيجية التحليل من مقاربة إلى أخرى. فلم يلتزم فيها بآليات التفكيك.

وهذا يجعلنا نطرح تساؤل هل التفكيك منهج؟ أم هو استراتيجية من استراتيجيات تحليل الخطاب؟ إلا أن جاك ديريدا (Jacques Derrid) (2004) يقر أن التفكيك ليس منهجا **"فمن خلال استراتيجيته سيتم قلب النظام الهرمي الذي أقامته الميتافيزيقا الغربية والانفتاح على الهوامش والكشف عن الخلفيات الثاوية وراء البديهيات والمسلمات التي اعتمد الفكر الغربي في بناء أنساقه وبلورة مؤسساته المختلفة"**[11]، فالتفكيك مصطلح زئبقي لا يمكننا تعريفه أو التأسيس له لأن دلالاته المعرفية أصلا تلغي وتثور ضد الثوابت، فالتفكيك عند ديريدا جاء لقلب الطروحات الميتافيزيقية.

إلا أن موسوعية مرتاض وتحوله المنهجي لا ينتهي في هذه النقطة فقط، فمصطلح التشريحية في حد ذاته يحمل نوعا من اللبس؛ ذلك أن (يوسف وغليسي) أشار إلى ذلك مدافعا عن مرتاض في هذه النقطة قائلا: **"ذلك بأن الأستاذ يخلط خلطا لا أساس له بين تشريحية عبد الله الغذامي (التي أصبحت مرادفة للتفكيكية لدى**

الكثير من النقاد، منذ جعلها الغذامي مقابلا لمصطلح (deconstruction)، في كتابه "الخطيئة والتكفير" سنة 1985) و"تشريحية" عبد الملك مرتاض التي لا صلة لها بالتفكيكية"[12]، وقضية تأرجح عبد الملك مرتاض بين التشريحية والتفكيكية جعل من كتابه "بنية الخطاب الشعري" سببا لإثارة الجدل في الساحة النقدية، إلا أن (يوسف وغليسي) برر له ذلك بقوله: **"ما دام مرتاض هو الأسبق إلى استحداث هذا المصطلح، فهو ليس مسؤولا –إذن- عن تحميله ما لا يطيق!"**[13]. معتبرا هذا التداخل ليس بالخلط المعرفي بل له تبرير هو أسبقية مرتاض لوضع مصطلح التشريحية واستحداثه له في الساحة النقدية العربية. فمرتاض جمع بين المناهج الحداثية و ما بعد الحداثية، وهذا ليس عيبا في حد ذاته بقدر ما هو عدم استيعاب لاستراتيجية التفكيك أو التشريح التي لا تؤمن بالمنهج أو آلياته.

1- بين البنية (Structure) والتفكيك (Deconstruction):

يحيلنا عنوان الكتاب أيضا على جمع الناقد بين مصطلح (البنية) وهو مصطلح له محموله المعرفي، وينتمي لفترة فكرية هي مرحلة الحداثة التي تبنت هذا المصطلح، فله حمولة ثقافية وفلسفية على اعتبار أن **"مفهوم البنية، في أيامنا هذه، يحمل فلسفة تمثل، في طبعتها الدوغمائية، نقطة الوصول لفلسفة موت الإنسان، للفلسفة التي بلا ذات"**[14]. ومصطلح (التشريحية) وهي استراتيجية تنتمي إلى مرحلة ما بعد البنيوية؛ أي أننا ألغينا مصطلح البنية والنسق بتهشيمه وتجاوزه لمرحلة معرفية جديدة هي مرحلة ما بعد الحداثة.

وبالعودة إلى المنهج الذي اعتمده مرتاض نجده يركب بين المنهج البنيوي والأسلوبي على الرغم من أنه لم يصرح بذلك في كتابه، لأن عنوان الكتاب يحيل على أن الاستراتيجية المتبعة هي استراتيجية التفكيك/التشريح، لكن بالغوص في مضمون الكتاب نجد الناقد يوظف المنهج البنيوي، الذي يعد منهجا حداثيا استمد روافده من المنهج التجريبي ولسانيات دي سوسير، فتبنى النموذج اللغوي، وهذا لإلغاء النزعة الإنسانية والانتقال من سجن العقل إلى سجن اللغة ذلك لاعتقادهم أنهم أهملوا الواقع وأصبحوا ينظرون للعالم ماثلا داخل اللغة؛ **"فالبنيوية لم تكن إلا تتويجا لجهود ألسنية سابقة، تأتي على رأسها جهود المدرسة السوسيرية (التي قد تسمى أحيانا "حلقة جنيف")، بزعامة العالم اللغوي السوسيري الكبير فردينان دي سوسير- Ferdinand De Saussure (1857-1913) مؤسس اللسانيات الحديثة التي صارت تسمى (Linguistique) عبر محاضراته الشهيرة التي كانت عصارة ثلاثة فصول دراسية بجامعة جنييف خلال الفترة الممتدة بين 1906-1911 ثم نشرت عام 1911، بعد وفاته بثلاث سنوات"**[15]، فكانت جهود دي سوسير (De Saussure) اللسانية ومدرسة جنيف من بين الروافد الأولى للبنيوية، ذلك أن الأدب نسق لغوي لذلك تتم مقاربته على هذا الأساس، وهذا ما يجعلنا نستدعي الإجراءات اللسانية. وقد استمد دي سوسير منهجه وأفكاره من العلم التجريبي بحيث أنه ثار ضد كل ما هو لاهوتي.

والبنيوية منهج نقدي كان له شيوع وسيطرة على حقول الدراسات الأدبية في فرنسا. ثم أن **"المقولة الأساسية في المنظور البنيوي ليست هي مقولة الكينونة، بل مقولة العلاقة. والأطروحة المركزية للبنيوية هي توكيد أسبقية العلاقة على الكينونة، وأولوية الكل على الأجزاء...ولقد طرح ماركس مبدأ هذه البنيوية المطبقة على العلوم الإنسانية حين كتب، في أطروحته السادسة عن فيور باخ: (إن الفرد هو جملة علاقاته الاجتماعية)"**[16]، فإلغاء البنيوية للمرجع هو إلغاء للميتافيزيقا. لذلك عدت ثورة على الميتافيزيقا، وانتمائها لفترة الحداثة جعل لها قطيعة معرفية معها، فجعلت البنيوية العالم محصورا في بنى وهذا ما جعلها منهجا وليست فلسفة.

في حين نجد في كتاب عبد الملك مرتاض ممارسة بنيوية من خلال تقديمه مفهوما للبنية أنها **"الخصائص المورفولوجية الخالصة في الخطاب الشعري"**[17]؛ أي أنها العناصر التي تجمّل الشعر وتحقق له فرادة خاصة به. وكذلك يرى أنها **"نظام لسانوي بديع"**[18] يتميز بوحدات لسانية يقوم عليها النص الشعري، والعلاقات التي تربط هذه الوحدات يقوم عليها النص تشكل لنا انسجاما ونظاما ينسجه المبدع.

ويقسم مرتاض البنية إلى إفرادية وأخرى تركيبية مكونة من الأسماء المعرفة والأفعال، فكان عمله قائما على معرفة أجزاء الوحدات لأنه يعتبر أننا **"بمعرفتنا أجزاء الوحدات وممّ تألفت، نكون قد عرفنا، بشكل أو بآخر، خصائص هذه الوحدات؛ وهي معرفة تفضي بنا إلى حصر الخصائص الألسنية العامة لنسج الخطاب"**[19]. فكان تنظير مرتاض للبنيوية مرتبطا بجوهر هذا المنهج الذي يبحث في الوحدات المكونة للنص، وممّا تألف وكيف تشكلت دون الاهتمام بالمؤلف أو العناصر الخارجية للنص. لكننا نجده غير ملتزم بهذا التنظير في تحليله للقصيدة؛ فقد اكتفى بالحديث عن الحيز الشعري والزمن الأدبي والصوت والإيقاع والمعجم الفني، مبررا أن انتقاء هذه العناصر دون غيرها يفرضه النص المراد الاشتغال عليه.

وفي مقاربة مرتاض لعناصر القصيدة، نجده يركب بين البنيوية والشعرية والتأويل، فلا يحصر قراءته في منهج واحد، ويعتمد مقولة الجاحظ كقاعدة يحلل من خلالها قصيدة "أشجان يمانية"، ولا يعتمد آليات المنهج البنيوي التي تقصي وتلغي المؤلف وتعتبر النص وحدة نظامية مكونة من بنيات تشكل لنا نسقا لغويا.

وقد اعتمد مرتاض توظيف مقولات النقد القديم في قراءة المتون النقدية الحديثة، وكذلك التأصيل لمناهج نقدية حديثة، بالعودة للتراث، فاعتبر أن البنية في النقد الغربي يقابلها تخير اللفظ لدى الجاحظ، فيقول: **"وليست البنية هنا (أي تخير اللفظ لدى الجاحظ) مجرد صيغ وقوالب لغوية وصرفية كالأطر الفارغة، والطبول الباردة؛ ليس لها حركة وليس فيها حياة"**[20]، ففكرة تخير اللفظ وانتقائه لدى الجاحظ تختلف عن البنية التي تحمل مفهوما مغايرة لما ورد لديه. وقد أدى هذا لوقوع مرتاض في خلط ذلك أن البنيوية لها زمانها وبيئتها التي ظهرت فيها وكذلك مقولة الجاحظ لها بيئة زمنية ظهرت فيها، فمرتاض كان على وعي بالمنهج البنيوي إلا أنه لم يوظف آلياته في مقاربته لقصيدة "أشجان يمانية".

ولأن عبد الملك مرتاض عُرف بالمزاوجة بين المناهج أو التركيب المنهجي فإضافة للمنهج البنيوي وظف لنا المنهج الأسلوبي الذي يعد من المناهج التي جعلت الدراسات اللغوية قوامًا لها في قراءة وتحليل النصوص. فالأسلوبية تتحدد **"بكونها أحد فروع علم اللغة، إلا أن اعتمادها على وجهة نظر خاصة تميزها عن سائر فروع الدراسات اللغوية، فالأقرب إلى المنطق اعتبارها علما مساوقا لعلم اللغة، لا يعنى بعناصر اللغة من حيث هي، بل بإمكانياتها التعبيرية، وعلى هذا الأساس تكون لعلم الأسلوب الأقسام نفسها التي لعلم اللغة"**[21]، فتسعى الأسلوبية في اشتغالها على البحث عن العناصر التعبيرية المشكلة للنص أو الوحدات اللسانية التي تعرفنا بأسلوب المبدع وتحدده، وهذا يؤكّد التداخل الوظيفي بين اللسانيات والأسلوبية. إنّها **"ترتبط باللسانيات ارتباط الناشئ بعلة نشوئه، فلقد تفاعل علم اللسان مع مناهج النقد الأدبي الحديث حتى أخصبه فأرسى معه قواعد الأسلوب، وما فتئت الصلة بينهما قائمة أخذا وعطاء بعضها في المعالجات وبعضها في التنظير"**[22] واعتماد الأسلوبية على اللسانيات، ونشوئها في ظل ثنائية اللغة والكلام، ثم تحوّلها إل منهج من مناهج النقد الأدبي، لتشكل لنا مساحة وصفية وتحليلية، نستطيع بها تقصي الأسلوب وكشفه وتأويله بما يتناسب وخصوصية النص الأدبي المدروس.

2- بين الشعر (Poetry) والشعرية (Poetic):

اعتمد مرتاض في كتابه "بنية الخطاب الشعري" المزاوجة بين نظريتين متباعدتين زمانيا ومختلفتين في التكوين؛ وهما الشعرية عند (جون كوهين) (John Cohen)، ومقولة (الجاحظ) حول الشعر، فيقول: "الألفاظ التي نريدها هنا هي ذلك النسج البديع الذي كان أبو عثمان يتحدث عنه، وهي أيضا تلك العبقرية المتجسدة في كيفية الإبداع التي يتحدث عنها جان كوهين"[23]، فهذا الجمع بين مقولة (الجاحظ) وما قدمه (جون كوهين) حول الشعرية به اختلاف كبير، فقد نعتبر أن الجاحظ كان متميزا بعبقريته في زمانه وكذلك كوهين إلا أن نظريته حول الشعر والشعرية تختلف فالجاحظ اعتبر الشعر قائما على "استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني، وإنما الشأن في اقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"[24] فمقولة الجاحظ هنا دلالة على أن الشعر صناعة يقوم بها الشاعر لنسج صور فنية وإبداعية. فالشعرية والبيان لديه قائمة من خلال الوزن و التعبير الجيد والصور الشعرية وبنية اللغة أو مكونات النسيج أو النص المحكم و كذلك القدرة على نقل الواقع أو الأشياء من خلال اللغة. أما جون كوهين فرأى أن "الشعر واقعة، كغيرها من الوقائع، قابلة للملاحظة علميا، والتحديد كميا يؤدي ضرورة إلى صدم الإحساس العام، فالشعر اليوم في درجة من التقديس تظهر معها كل محاولة للكشف عن آلياته بمظهر التدنيس"[25] فكأنما الشعر ظاهرة فنية الأداة الأولى للمبدع فيها هي اللغة في مستوياتها المختلفة من أبسط وحدة وهي الصوت إلى أطولها وهي النسيج النصي، أو موضوعٌ يقتضي التحديد وإصدار الأحكام والنتائج حوله بعيدا عن أي ذاتية أو أيديولوجيا فله من الأهمية بقدر ما للعلوم الأخرى.

إلا أن "الرجوع إلى كتاب جون كوهين الشهير بنية اللغة الشعرية structure du langage poétique الذي أثبته الدكتور عبد الملك مرتاض يعزز هذا الرأي الذي يذهب إليه الكاتب على المستوى الشكلي فقط، فالملاحظ أن جون كوهين بنى واقعا نظريا، من الملاحظ أن الدكتور عبد الملك مرتاض استفاد كثيرا من هذا الكتاب وواضحة الارتدادات المنهجية التي خلفها فيه"[26]، فساهم ذلك في استفادة مرتاض مما قدمه جون كوهين، والذي ظهر بشكل واضح في كتابه. واستناد مرتاض لكتاب كوهين كان مبرَرًا، على اعتبار أنّ هذا الكتاب يدخل "ضمن الشعرية البنيوية، وهي بنيوية ذات كفاءة في الصياغة الشكلية"[27]. إلا أن جون كوهين قد حصر مضامين الشعرية وموضوعها في الشعر فقط فالشعرية عنده "علم موضوعه الشعر"[28] فكانت استفادة مرتاض من كتاب "بنية اللغة الشعرية" بتبنيه منهجا أسلوبيا بنيويا يتفق مع ما اعتمده جون كوهين. فقد اشتغل على خصائص الصورة في قصيدة "أشجان يمانية"، متبعا وجهة نظر كوهين فسار على طريقته في تحليل الصور الشعرية من خلال نموذج أدرجه كوهين في مؤلفه، اعتمد فيه مقاربة بنيوية تعتمد على موضوع الشعر لاستقراء الصور الشعرية التي وظف فيها مرتاض بعض الصور البلاغية من التراث القديم، فيشير لذلك في كتابه قائلا: "كتوقفهم لدى قول القائل القديم: (بعيدة مهوى القرط) وإعجابهم الشديد بهذه الكناية وعدّها من فلتات البلاغة ... إن ألفاظ هذا النص لا تحمل شيئا من الرقة، ولا تكاد توحي بأي شاعرية. فهذه الرسالة الخطابية مركبة من ثلاثة دوال، وهي: بعيدة ـ مهوى ـ القرط"[29]، فهذه الصورة البلاغية كانت تحمل دلالة فنية في زمانها وإذا أردنا الحكم عليها اليوم باعتبارها صورة شعرية لها دلالتها لا يمكن أن نقارنها بغيرها من الصور. ذلك أن مرتاضا رأى أن ألفاظ هذه الكناية "ثلاثتها خالية من الماء الشعري، وهي وإن كانت تحمل حيزا أدبيا إلا أنه يوحي بالوحشة حيث أن البعد يدل على شطوط المسافة، على حين أن (المهوى) يعني الانحدار الاضطراري...أما القرط فهو من أسوء أنواع الحلي ذكرا"[30]. وهذه الصورة بعيدة عن اللغة البلاغية التي تؤثر في نفوس المتلقين لها، وقد قدم حولها الناقد حكما بلاغيا فنيا لا يشبه بل يوافق ما قدمه جون كوهين حينما حكم على صورة شعرية غربية، وهي مَثلٌ يتردد في ألسنتهم كثيرا، يقول فيه: "الفيلة تجرها الخيول" فهذه الجملة حسبه "تكون ذات معنى إذا استطعنا إخضاعها لاختبار الصدق ...وفي جميع الأحوال يبدو أن المنطق لا يوافق على ذلك"[31]، فكان حكم كوهين على هذه الجملة مستندا إلى المنطق فكيف للخيول أن تجر كائنا بحجم الفيل.

وقد تناول مرتاض خصائص الحيز الشعري ملتزما بإجراءات المنهج البنيوي، فذكر عشرة أنواع من هذا الحيز استنادا لما ذكر في القصيدة إلا أنه حلل خمسة نماذج فقط لأنه رأى "أننا لو شئنا أن نمضي في معالجة هذا الحيز، عبر قصيدة (أشجان يمانية)، لما أمنّا أن يستغرق منا كتابا كاملا"[32]. وقد مزج مرتاض دراسته البنيوية بمستحدثات النقد الأدبي الألسني في معالجته لخصائص المعجم الفني، مُتَّبعا أيضا عملية الإحصاء وأظهر التزاما بنيويا في حديثه عن خصائص الزمن الأدبي ومحاولة رسم صورة واضحة عن مسار الزمن في القصيدة وتركيباته.

وفي مقاربته لخصائص الصوت والإيقاع قام بعملية إحصائية وصل من خلالها إلى أن "قصيدة (أشجان يمانية) إذا كانت خرجت عن الإيقاع التقليدي للشعر العربي العمودي، فبانتمائها إلى عالم الشعر الحديث،

ولكن الإيقاعات الخارجية، مع ذلك، ظلت تسير في فلك الصوت العربي القحّ بخصائصه التي تتجسد في حروف أكثر من سواها"[33]؛ ومن هنا نجد بأنّ معالجته أسلوبية بنيوية ترتكز على النص وتعالجه وفق آليات المنهج البنيوي، مطعمة بالمنهج الأسلوبي معتمدة فيه على الأسلوبية الإحصائية لجون كوهين وهذا تأثر واضح لمرتاض بكتاب "بنية اللغة الشعرية".

خاتمة:

- يعد الناقد عبد الملك مرتاض من النقاد الذين تميزوا بموسوعية وقدر فكري ومعرفي جعله أيقونة في النقد العربي، وأحد أهم أقطاب النقد الجزائري المعاصر.

- ركّب عبد الملك مرتاض بين عدة مناهج في قراءته لنص "عبد العزيز مقالح" وهذ عبارة عن عملية تنويع منهجي، فنص "أشجان يمانية" ليس بحاجة لهذا القدر من المناهج كي نركب بين منهج بنيوي وأسلوبي ونعتمد كذلك آليات التحليل المستوياتي.

- لم تكن قصيدة "أشجان يمانية" حاضرة في متن الكتاب ولم يتم وضعها كملحق كي يستطيع القارئ فهم القراءة التي يقدمها مرتاض لها، فغياب النص الذي يتم قراءته جعل الكتاب غامضا نوعا ما.

- التفكيكية أو التشريحية هي استراتيجية جذابة نظريا وفلسفيا، لكن كآلية اجرائية تبقى معقدة لأنك في الوقت الذي تسعى فيه لمحاولة تفكيك أبنية الخطابات وهدمها، تجد نفسك تبني وتحلل هاته الأبنية. وهذا ما وقع فيه عبد الملك مرتاض.

- عُرِف مرتاض بإستراتيجية التركيب بين المناهج ففي قراءته لعناصر القصيدة نجده يركب بين البنيوية والأسلوبية والتأويل، فلا يحصر قراءته في منهج واحد، وهذا التذبذب أوقع الناقد في عدم التزامه بآليات المنهج الإجرائية فلا يطبق المناهج كما تلقاها من النقد الغربي.

- في مقاربة مرتاض لعناصر القصيدة نجده يركب بين البنيوية والشعرية والتأويل، ويعتمد مقولة الجاحظ كقاعدة يحلل من خلالها قصيدة "أشجان يمانية"، ولا يعتمد آليات المنهج البنيوي التي تقصي وتلغي المؤلف وتعتبر النص وحدة نظامية مكونة من بنيات تشكل لنا نسقا لغويا.

- في مقاربة الناقد للقصيدة أسلوبيا اجتهاد واضح لاعتماد آليات التحليل الأسلوبي البنيوي، وتأثر بكتاب "بنية اللغة الشعرية" لجون كوهين من خلال تحليل الصورة الشعرية واعتماد الأسلوبية الإحصائية في الفصول الأخيرة من الكتاب.

- حاول الناقد تطويع المنهج بما يتناسب مع قصيدة "أشجان يمانية" وهذا كان سببا في عدم التزامه بالآليات الإجرائية للمنهج.

- اشتهر مرتاض بمرجعيته التراثية لكن لا يمكن تبرير تأصيله لمناهج حداثية وغربية لها مرجعيتها وفلسفتها بالعودة بها إلى التراث العربي القديم.

- إن قراءة كتاب عبد الملك مرتاض هي محاولة منا لاستنطاق بعض جوانبه بقراءة تندرج ضمن آليات نقد النقد، ليس الهدف منها البحث عن الجوانب الغامضة من التحليل بقدر ما هي استفادة من هذا الموسوعة النقدية الجزائرية الحية الذي استوعب المناهج الغربية من خلال دراسات إجرائية على نصوص عربية علمنا فيها كيفية المزاوجة بين المناهج وبين التراث والحداثة.

هوامش وإحالات المقال

[1]- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، منشورات إبداع، الجزائر، دط، 2002، ص63.

[2]-عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دت، ص18.

[3]- كتاب ألفه عبد الملك مرتاض سنة 1994 نشر بدار المنتخب العربي الصادرة في بيروت لبنات، وقد طبق فيه مقاربة سيميائية لقصيدة أشجان يمانية أخضع فيها الناقد القصيدة للشرح والتحليل والتشريح.

[4]-المصدر نفسه، ص4.

[5]- عبد الغني بارة، الهرمنيوطيفا والفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2008، ص24.

[6]- أحمد عبد الحليم عطية، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2010،ص333.

[7]-عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص27.

[8]-ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، لبنان، بيروت، دط، 1989، ص18.

[9]-عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، ص30.

[10]-المرجع نفسه، ص30.

[11]-جاك ديريدا، استراتيجية التفكيك(حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة) تر: عز الدين الخطابي، أفريقيا الشرق، دط ، المغرب،2013،ص07.

[12]- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص43.

[13]- المرجع نفسه، ص43.

[14]-روجي غارودي، البنيوية، فلسفة موت الإنسان، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1979، ص13.

[15]- يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007، ص64.

[16]- روجي غارودي، البنيوية، فلسفة موت الإنسان، ص13,14.

[17]-عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ص23.

[18]- المصدر نفسه، ص6.

[19]- المصدر نفسه، ص25.

[20]-المصدر نفسه، ص6.

[21]-يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار الميسرة، عمان، ط1، 2007، ص40.

[22]-عبدالسلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ط3، 1982، ص5.

[23]- عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ص10.

[24]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1965، ج3، ص132,131.

[25]- جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986، ص24.

[26] علال سنقوقة، الأثر البلاغي في ممارسات عبد الملك مرتاض النقدية كتاب: بنية الخطاب الشعري-دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية-، مجلة اللغة الوظيفية، الجزائر، ص70.

[27]-جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص6.

[28]-جون كوين، النظرية الشعرية، بناء لغة الشعر، تر: أحمد درويش، ج1، دار غريب، القاهرة، ط4، 2000، ص29.

[29]-عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ص50، 51.

[30]-المصدر نفسه، ص51.

[31]-جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص103.

[32]-عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ص105.

[33]-المصدر نفسه، ص167.

المصادروالمراجع:

1- المصادر:

1- عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دت.

2- المراجع:

1. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون،ج3، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1965.
2. أحمد عبد الحليم عطية، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2012.
3. جاك ديريدا، استراتيجية التفكيك(حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة) تر: عز الدين الخطابي، أفريقيا الشرق، دط ، المغرب،2013.
4. جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986.
5. جون كوين، النظرية الشعرية، بناء لغة الشعر، تر: أحمد درويش، ج1، دار غريب، القاهرة، ط4، 2000.
6. روجي غارودي، البنيوية، فلسفة موت الإنسان، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1979.
7. عبدالسلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، 1982، ط3.
8. عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991.
9. عبد الغني بارة، الهرمنيوطيفا والفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2008.
10. علال سنقوقة، الأثر البلاغي في ممارسات عبد الملك مرتاض النقدية كتاب: بنية الخطاب الشعري-دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية-، مجلة اللغة الوظيفية، الجزائر.
11. ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، لبنان، بيروت، دط، 1989.
12. يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار الميسرة، عمان، ط1، 2007.
13. يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، منشورات إبداع، الجزائر، دط، 2002.
14. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007.